DENİZ, G., "Gazâlî'yi Anlamanın Usûlü"
el-Mecelletü'l-ilmiyye li-Riâseti'ş-Şuûni'd-Dîniyyeti't-Türkiyye; 4 (2022): 242-269

GAZÂLÎ'YI ANLAMANIN USÛLÜ
THE METHOD OF UNDERSTANDING GAZÂLÎ

GÜRBÜZ DENİZ
PROF. DR.
ANKARA ÜNİVERSİTESİ/İLAHİYAT FAKÜLTESİ

ÖZ

Bu makale Gazâlî'nin düşünce sisteminin nasıl geliştiğini incelemektedir. Makalede Gazâlî'nin düşüncesi bir bütün olarak kendi içinde tutarlı/istikrarlı mıdır veya değil midir sorusuna cevap aranmaktadır. Bu bakımdan Gazâlî'nin çalışmalarının kronolojik sıralaması ve Gazâlî'nin hayatındaki değişim safhalarının düşüncesi üzerindeki etkileri çalışılmıştır.

Aslında Gazâlî'nin fikirleri bütünsel olarak okunduğunda, birbirleriyle çelişik gibi görünen bu fikirlerin onun hedefleri bağlamında bir bütünlük arz ettiğini bu makale ortaya koymaya çalışmaktadır.

Anahtar Kelimeler: Gazâlî, Bütünsellik, Hakikat.

ABSTRACT

This article deals with the way in which al-Ghazzali's thought has developed. The question "Is al-Ghazzali's thought, as a whole, consistent in itself or not?" is tackled in the article. In this regard, the chronological order of al-Ghazzali's works and the influence of the phases of change in al-Ghazzali's life on his thought are studied. In this article we try to show that al-Ghazzali's thoughts have integrity in reference to his goals even though these thoughts seem contradictory when read in their entirety.

Keywords: al-Ghazzali, Holism, Truth.

دنيز، غ.، "أصول فهم الغزالي"
المجلة العلمية لرئاسة الشؤون الدينية التركية؛ 4 (2022): 242-269

أصول فهم الغزالي*

غوربوز دنيز
الأستاذ الدكتور
جامعة أنقرة/كلية الإلهيات

الملخص

هذه الدراسة تبحث في كيفية تطور نظام فكر الغزالي، وتسعى إلى الإجابة عن هذا السؤال: هل كانت أفكار الغزالي كلّها منسجمة/متناسقة في حد ذاتها أو لا؟ وفي هذا الصدد، جرت دراسة التسلسل الزمني لأعمال الغزالي، وآثار مراحل التغيرات في حياة الغزالي في أفكاره.

تحاول هذه الدراسة إظهار أن أفكار الغزالي شمولية في سياق أهدافه، حيث تبدو أنها تتعارض مع بعضها عندما تُقرَأ بشكل كلّيّ.

الكلمات المفتاحية: الغزالي، الشمولية، الحقيقة.

* إن هذه الدراسة، هي النسخة العربية لمقالة نشرت سابقا باللغة التركية وقد أعطى صاحب المقالة لنا حقوق النشر المتعلقة بترجمتها إلى اللغة العربية. ومن يرغب بقراءة نسخة المقالة التركية الأصلية يمكنه الحصول عليها من خلال المعلومات المقدمة أدناه:

Gürbüz Deniz, "Gazâli'yi Anlamanın Usûlü", *Diyanet İlmi Dergi*, yıl; 2011, cilt; 47, sayı; 3, sayfa; 7-26.

المدخل

أ) الكُلانية في فهم الغزالي

الغزالي هو مثل الشجرة التي استظل بظلها تقريبًا كل مفكر مسلم عاش من بعده، وهذه الشجرة لم تجفّ أبدًا، وهي اليوم كما كانت بالأمس، تلقي بظلالها على الباحثين الشرقيين والغربيين الذين يكتبون عن الإسلام والتراث الفكري للمسلمين.

فكيف يمكن توضيح أن الجميع (وبخاصة المفكرون المسلمون) حريصون على التعبير عن أنفسهم بطريقة ما بالاستناد إلى الغزالي في تقاليد الفكر الإسلامي؟ الجواب المعقول عن هذا السؤال سيُظهر لنا من هو الغزالي بالمعنى الفكري.

ألّف الغزالي مصنّفات تخاطب العوام، والعلماء المتوسطين، والعلماء الراسخين (الرفيعي المستوى) بتأكيده الخاص، وبفضل هذه الخاصية وجدت مصنفاته قرّاءً من جميع شرائح المجتمع الإسلامي تقريبًا، وجرى قبولها على نطاق واسع؛ لهذا السبب، حاول/يحاول كلّ من أبدى رأيًا في الفكر الإسلامي إنشاء أساس معقول لأفكاره الخاصة من خلال ربطها بالغزالي بطريقة ما.

وبشكل عام فقد تحدث دارسو الغزالي عن الغزالي الذي أعجبوا به وبأفكاره وتمكنوا من فهمه ووجدوه قريبًا منهم ويوافق هواهم، وكتبوا عنه، واستخدموا أفكاره دليلًا/إثباتًا لدعم قناعاتهم، من هذا الباب فإن الكتابة عن الغزالي سهلة جدًّا وفي الوقت نفسه صعبة جدًّا. إنّ سهولة عمل كهذا تتمثل في تقييم الغزالي بحسب كتابه أو بحسب مكانة العلم في العلم الذي قام بتصنيفه، ومثل هذا النهج يُسهّل على الكاتب الوصول إلى استنتاجات واضحة حول هذا الموضوع؛ لأن حدود الموضوع الذي يبحث عنه واضحة. ولكن، عندما يُراد فهم الغزالي ككلّ، تصبح المهمّة صعبة، وسبب ذلك أن الغزالي مفكر نجح في مخاطبة جميع المسلمين في كل زمان وفي كل مكان بحسب مستواهم العقلي والتراكمي؛ لهذا السبب، فإن كل شخص أو مجموعة يجعل من الغزالي أساسًا لأفكاره بطريقة أو بأخرى، وحتى لو ساروا وفق أسسٍ صحيحة إلى حد ما، فإنهم غالبًا ما يكونون غير مكتملين من حيث شمولية فكر الغزالي وصحته.

ومن أجل تعويض هذا النقص -بدون شروط أولية- من الضروري قراءة الغزالي فكريًّا بكل جوانبه. وسيكون النجاح في هذه القراءة ممكنًا من خلال التركيز وفقًا لتعريفات الغزالي وتصنيفاته وآرائه؛ لهذا السبب لا بد من فهم الغزالي، ليس الغزالي الأحادي، ولكن الغزالي الذي يهتم بكل مشكلة، الذي يعبّر عن رأيه في كل موضوع وفقًا لفروع العلم المختلفة، وعند هذه النقطة، من المهم الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. هل الغزالي عالم في العلوم الإسلامية الأساسية (متخصص في العلوم العالية)؟

2. هل الغزالي عالم كلامي (متكلم)؟

3. هل الغزالي فيلسوف (حكيم)؟

4. هل الغزالي متصوف؟ أو أنه تحدّث إلى كل فرد من أفراد المجتمع المسلم بحسب ترتيب هذه العلوم؟

بحسب رأينا فإن الغزالي، موضوع هذه المقالة، عدّ جميع العلوم المذكورة آنفًا ضرورية للمسلم، ومع ذلك اعتقد أن الناس وفقًا لخلفيتهم ومستواهم العلمي، سيكون منهم من بقي في المرحلة الأولى من العلم والفهم، وسيكون منهم أيضًا من انتقل إلى المرحلة الثانية أو الثالثة؛ وقد حاول فهم الناس من هذا المنظور. كما يؤكد الغزالي أن بعضًا منهم سيكون لديه المهارات اللازمة لتحسين مستواه العلمي حتى المرحلة الأخيرة التي يرى الغزالي نفسه فيها. وعدّ الغزالي الناس على جميع المستويات مخلصين في إطار أفكارهم الخاصة في سياق مسؤوليته بوصفه مفكرًا ومثقفًا، وتصرفَ كما لو كان واحدًا منهم عندما كان يتحدث إليهم، كما أن هذه العبارات التي فسر فيها آية من القرآن الكريم وفّرت لنا قدرًا كبيرًا من الدلالات لفهمنا الشامل للغزالي، فإنها في الوقت نفسه ستسهم بشكل كبير في الكشف عن منهج فكر الغزالي:

﴿ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ﴾.[1] وهكذا، فإن دعوة الناس إلى الله على ثلاثة أشكال.

[1] النحل، 125/16.

1. الدعوة بالحكمة
2. الدعوة بالموعظة والإرشاد
3. الدعوة بالمجادلة

فالأشخاص الذين يجب دعوتهم بالموعظة إذا تحقّقت دعوتهم بالحكمة؛ يعني إذا دُعوا إلى الحق بالحكمة فهذا سيؤذيهم، بقدر ما يؤذي أكل لحم الطير الطفلَ الرضيع، والطريقة بنفسها فإن دعوة أهل المجادلة بالحكمة يضر بهم أيضًا. ومجادلة أهل المجادلة بطريقة غير لطيفة وغير حسنة هو خطأ أيضًا".[2]

إن شرح الحكمة وخلفيتها لشخص في مستوى يقدر فيه على تنظيم حياته بالموعظة فقط يتسبب في الارتباك الذهني للشخص وفساد قلبه وانهيار شخصيته، وإن قدرة شخص من مستوى العامة مثل هذا، ليست مناسبة لتحمل هذا القدر من التفصيلات والتفسير.

وإن توضيح جانب واحد من المسألة لشخص يعرف المشكلة بجميع جوانبها، والقول له: "هذا هو الحل لهذه المشكلة" يعني جعل هذا الشخص مشغولًا بأمور لا لزوم لها وغير ضرورية. وكما ذكر الغزالي في مثاله، كأن تضع أهل الحكمة موضع الأطفال الصغار وتحاول إرضاعهم كالأطفال.

أما بالنسبة لأهل المجادلة، فإن التصرف معهم بلطف يضمن بأن يتخذوا طريقة أكثر عقلانية حول الموضوع الذي يفكرون به، ومن ثَمّ فإنه يكون وسيلة لظهور حالة نافعة بدلًا من العداء، ومع ذلك يجب أن يتمتع أهل الحكمة أيضًا بأخلاق حميدة، مثل النبي إبراهيم عليه السلام، ويجب عليهم أن يولوا اهتمامًا خاصًا بمدى تأثير الأدلة التي سيقدمونها.[3]

والقسم الأخير من الآية التي ذكرها الغزالي: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ﴾، إشارة ضمنية إلى أن كل شخص سيكون مسؤولًا بما يتناسب مع قدرته الخاصة.

---

[2] أبو حامد الغزالي، *القسطاس المستقيم*، (بيروت 1991، تحقيق: فيكتور شلحت)، ص 41–42.

[3] الغزالي، *القسطاس*، ص 42.

قضى الغزالي حياته يكافح من أجل التأليف لمجموعات الناس على المستويات الثلاثة الموضحة آنفًا، وامتلأت كتبه وأفكاره بهذا الغرض، وكان يريد دائمًا أن يكون معاملة صاحب المستوى الرفيع لصاحب المستوى المنخفض بالرحمة واللطف. أما إذا كانت مخاطبة الرجل -الذي سيعيش بنفسه الحقيقة بالموعظة- عن طريق المجادلة أو الحكمة سيؤدي إلى الإضرار به، فمن الضروري منع هؤلاء الأشخاص من دخول هذا المسار. ويجب اللجوء إلى الخطاب الرادع إذا لزم الأمر. وبين الفينة والأخرى كان الغزالي يقف بجانب من واصل طريقه بالموعظة، وكان ينتقد المجادل. وفي أغلب الأحيان كان يقف إلى جانب المجادل ويهاجم أهل الحكمة. ومع ذلك، فإن الغزالي إذا انتقد شخصًا ما بشدة، فإنه لا يتردد في التعبير له عن حبه وتقديره، ويبالغ في هذه الأمور إلى درجة أن يقول: "استحقر مَن لا يُحسَد ولا يُقذَف، واستصغر مَن بالكفر أو الضلال لا يُعرف".[4] وهذه التعبيرات تدهش الأشخاص الذين يعرفون أو يخضعون لمجموعة واحدة فقط من المجموعات التي حددها الغزالي. وهو تعبير رائع عن الطريقة التي ينظر بها الغزالي إلى العوام والعلماء المتوسطين وطالبي الحقيقة الذين لا يخشون لومة لائم في طريق الحقيقة. وبحسب الغزالي فإنه ليس من الجدير أن يَتَّهم البعض بالكفر مَن لديهم أفكارهم الخاصة ويظهرون الولاء لأفكارهم، وهذا يشمل الغزاليّ نفسه أيضًا عندما يُنظَر إليه من وجهة نظر العلماء المتوسطين. وقد ذكر الغزالي أن اتهام المفكرين الذين لديهم أفكار لا يمكن فهمها ولم تقبلها أيديولوجيا المجتمع السائد، بالكفر بسبب آرائهم يكون من الأنسب تفسيره بأن أفكارهم أفكار قوية وعظيمة؛ لأن الحقيقة دائمًا ما تكون يتيمة عندما تظهر لأول مرة، أي أنه ليس لها وليٌّ بعد.

وتماشيًا مع السياق أعلاه، هناك عدة طرق لعرض أفكار الغزالي بشكل شمولي، وهي:

1. تحديد فترة حياة الغزالي التي تقابل كل عمل من أعماله.[5]

---

[4] أبو حامد الغزالي، *فيصل التفرقة* (تحقيق: سميح دغيم، بيروت 1993)، ص 47.

[5] انظر حوراني، جورج، *of* ، "The Chronology of Ghazâli's Writtings"، *Journal the American Orietal Society* المجلد 79، العدد: 4، تشرين الأول-كانون الأول، 1959، ص 225-233؛ حوراني، New A.Revised Chronology of Ghazali's" Writings"، *JAOS*، 104، Haven، ص 289-302.

2. تحديد نوع التكوين والتطور الفكري والسياسي الذي كان الغزالي فيه خلال مسيرة حياته.

3. بحسب اعتقادنا، سيكون من المهم تصنيف أفكار الغزالي بالرجوع إلى أعماله والتحدث عن الغزالي بما يتماشى مع هذا التصنيف.

وبناءً على تعبيرات الغزالي الخاصة يمكننا تصنيف أعماله بثلاثة طرق:

أ) الأعمال المكتوبة للعوام: كُتِبت هذه الأعمال لتقديم المواعظ والإرشادات للجمهور، وهي تحتوي على موضوعات متنوعة، مثل المعلومات الفقهية، والترغيب والترهيب، وكيف يكون نهج تزكية النفس الذاتية، ومن أهم هذه الأعمال كتابه *إحياء علوم الدين*. ويُعَدّ كتاب *كيمياء السعادة* وأعماله الأخرى التي تضم محتوى كهذا المحتوى من الكتب المؤلفة في هذا الصنف.

ب) الأعمال المكتوبة لعلماء الطبقة الوسطى: هذه الأعمال تتناول الموضوعات الكلامية، وعادة ما تكون على شكل سؤال وجواب أو انتقاد شخص ما. وهي تخاطب علماء من المستوى المتوسط. وعلى حد تعبير الغزالي فإن هذه الأعمال ليست مكتوبة من أجل البحث عن الحقيقة أو تفسيرها، ولكنها مكتوبة ضد الآراء التي تمنع من أن تُفهم الحقيقة على مستوى متوسط. وعلى رأي الغزالي فإن مثل هذه الأعمال لا ترسّخ إيمان المرء ولا يمكن أن تكون وسيلة لتجلي الحقيقة.[6]

ويمكن دمج جميع الأعمال المكتوبة في الموضوعات الكلامية والأساليب الكلامية وبخاصة كتاب تهافت الفلاسفة ضمن هذا النوع.[7] وفي الواقع كُتِبت هذه الأعمال على شكل إجابات عن أسئلة حول موضوع ما سواء أكانت معروفة أو افتراضية بدلًا من أن تكون منهجية ومنطقية.

ج) الأعمال في هذا الصنف لها أهمية خاصة عند الغزالي، وهي الأعمال التي كتبها الغزالي للعلماء ذوي المستوى العالي من المعرفة (الراسخين في العلم)، حيث قال عنها: "إن مفهومي للحقيقة والآراء التي توصلت إليها بنفسي موجودة في هذه الأعمال". ومحتوى هذه الأعمال

[6] أبو حامد الغزالي، *المنقذ من الضلال* (تحقيق: سميح دغيم، بيروت 1993)، ص 61-62.

[7] Gazâlî, *Kur'an Cevherleri* (çev. Ömer Türker), İstanbul 2006, s. 41-42.

مبني على الأفكار الموجودة بين الفلسفة والتصوف أو على هذين الأساسين. وفي هذا البناء نرى الأصالة العلمية للغزالي. وعلى الرغم من أن الأعمال الآنفة الذكر تأثرت فكريًّا بالفلسفة والصوفيين السابقين للغزالي، إلا أنه من المهم للغزالي إعادة تفسير هذه الآراء وإنشاء نظام فكري جديد. ومن أهم أعمال الغزالي في هذا السياق: *المضنون به على غير أهله* و*فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة* و*مشكاة الأنوار والقسطاس المستقيم* وغيرها من الأعمال.

وقد كانت أعمال الغزالي التي اشتهرت بعد وفاته وقرأتها المجتمعات الإسلامية على نطاق واسع تلك التي كتبها لعلماء الطبقة الوسطى والعوام، أما الأعمال التي كتبها للعلماء الراسخين فقد تابعها أقلية صغيرة جدًّا. ومع ذلك، فقد قدم المستشرقون ادعاءات تثير شكوكًا جادة حول نسبة كتاب مشكاة الأنوار إلى الغزالي، وبخاصة الجزء الثالث منه، الذي يُعَدّ في هذا السياق ذروة أعمال الغزالي.[8] وقد جرى الرد على هذه الادعاءات في دراسة مفصلة أجراها عبد الرحمن بدوي.[9]

تدور أعمال الغزالي الأولى حول تلخيص أو إعادة تنظيم المسائل الفقهية المعروفة، وبعد تعيينه في المدارس النظامية من قبل نظام الملك (المولود سنة 1017 والمتوفَّى سنة 1096)، كانت أعمال الغزالي هي الأعمال المكتوبة بالأساليب الكلامية التي نسميها أسلوب علماء المنافحة. وفي هذه الأعمال تظهر كتاباته التي تستهدف الآراء الباطنية للفلاسفة والباطنية في المقدّمة. وكتابة هذه الأعمال هي ضمنيًّا المهام المسندة إلى الغزالي من قبل القصر. وقد أدلى الغزالي بتصريحات حول هذه الأعمال التي كتبها خلال فترة تدريسه في المدرسة النظامية، وهذه التصريحات هي: "لو اشتغلتَ بدعوة الخلق عن طرقهم لعاداك أهل الزمان بأجمعهم. وأنّى

[8] Montgomery Watt, "A Forgery in al-Ghazali's Mishkat", JRAS, 1949, s. 5-22.

[9] عبد الرحمن بدوي، *مؤلفات الغزالي* (الكويت 1977)، ص 196؛ بناء على ادعاءات المستشرقين فإن المعلومات الواردة في الفصل الثالث لا تتطابق مع آراء الغزالي في أعماله الأخرى، والأهم من ذلك يُزعَم أن أقدم مخطوطة من المشكاة تعود إلى ما بعد 70 عامًا من وفاة الغزالي. ولكن في عمل عبد الرحمن البدوي (ص 196 وما يليها)؛ ظهرت حقيقة أن نسخة *المشكاة* تعود إلى ما بعد أربع سنوات من وفاة الغزالي، وأن هناك ثلاثة فصول في تلك النسخة، وأن الغزالي ذكر أنه سيكتب هذا العمل في ثلاثة أجزاء في بداية الكتاب، وهذا ترك ادعاءات المستشرقين بلا أساس.

تقاومهم؟ فكيف تعايشهم ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد، وسلطان متدين قاهر؟ فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللًا بالعجز عن إظهار الحق بالحجة".[10]

تُعَدّ تصريحات الغزالي هذه عن حياته مهمّة من حيث إظهار كيفية تشكيل عالمه الفكري. أولًا ومن أجل دعوة الناس إلى الحق والحقيقة قَبِلَ الغزالي خلال فترة مهمة من حياته الاحتماء بالسلطان لتجنب الانتقاد والإدانة من الآخرين، ولكن يمكن الفهم من نص الغزالي أنه كان منزعجًا من هذا الموقف في فترات حياته الأخيرة. وبحسب قناعاتنا فإن هذا الانزعاج ينبع من الصعوبة التي واجهها في التعبير عن الحقيقة وعيشها بالطريقة أو الأسلوب الذي يريده؛ يعني بعبارة أخرى اتضح أنه يعلق أهمية على كونه فردًا مستقلًا حتى يتمكن من التعبير عن آرائه والإفصاح عنها من دون التعرض لأي ضغوطات، وإلى جانب ذلك فالغزالي لم يشعر بالندم قطّ على أي عملٍ كتبه في أي فترة من فترات حياته، بل على العكس من ذلك، إذ كما حاولنا الإفادة آنفًا فقد كتب جميع كتاباته بغية خلق الشمولية ولمخاطبة جميع شرائح المجتمع. ولكن عندما كان يكتب نيابة عن العامة وبخاصة علماء الطبقة الوسطى، ترك التدريس في النظامية بسبب المشكلة في عدم قدرته على كتابة ما يريد كتابته حقًّا.

وقد نجح الغزالي في مخاطبة كل طبقة وكل مجموعة، ولم يتوان عن قراءة أي فكرة أو مجابهة أي مشكلة صعبة سببتها تلك الأفكار. لم يتخلَّ عن هذا الموقف منذ اللحظة التي بدأ فيها حياته العلمية حتى نهاية حياته. وبالنسبة له يجب تعلم كل ما هو معروف، وعليه يمكن القول: إن الخوف من العلم أو منع تعليمه لمن هو في مستوى مناسب لا يتناسب مع شخصية الغزالي. والغزالي يصف هذا الوضع بطريقته الخاصة: "ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ، أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمراته خوض الجَسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجّم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني".[11]

[10] أبو حامد الغزالي، *مشكاة الأنوار* (تحقيق: سميح دغيم، بيروت 1994)، ص 92-93.
[11] أبو حامد الغزالي، *المنقذ من الضلال*، ص 50.

ب) طالبو الحقيقة

من المهم لكل مفكر أن يحدد موقع الناس والعلوم ويقوم بتقييمهم وفقًا لمعرفته وخبرته، وأن ينسب قيمةً إلى تلك العلوم واحدًا تلو الآخر. وكان هذا أحد مجالات الفضول المفتوحة أو السرية التي تهمّ العلماء؛ لأنها ترتبط بمسألة معرفة أي علم وأي رجل علمٍ مفيد في أي مجال، وتطوير المواقف وفقًا لذلك.

وقد أولى الغزالي هذا الموضوع اهتمامًا خاصًا، وذهب إلى تصنيف طالبي الحقيقة في محور الكلام، وبخاصة في كتابه المنقذ من الضلال. وجرى قبول هذا التصنيف من بعده بأنه طريقة فهمه للعلم، وانتشر على نطاق واسع، وفي هذا الكتاب يكشف الغزالي أيضًا عن كيفية تصنيفه لهذه العلوم.

كما نرى أيضًا تصنيفًا في مشكاة الأنوار الذي ألفه الغزالي ليصنّف العلوم، وقد كتبه من أجل العلماء الراسخين خاصة، من حيث إنهم يوصلون الناس إلى الحقيقة، لكن تقييم هذا التصنيف وترتيبه يختلف تمامًا عن تقييم المنقذ. وفي هذا العمل، ينقل الغزالي الفلاسفة الذين لا يعدّهم جديرين بالملاحظة في كتابه المنقذ، إلى مرحلة مهمّة جدًّا من طالبي الحقيقة. وفي حين أن تصنيف الغزالي لطالبي الحقيقة في المنقذ كان أساسًا هو الرأي الشائع لعلماء تلك الفترة،[12] إلا أن التصنيف في مشكاة الأنوار شخصي وخاص بالغزالي. ونحن ومن خلال تقديم تصنيفات الحقيقة في سياق المنقذ والمشكاة، التي تُعَدّ ثوابت مهمة لفهم شمولية فكر الغزالي وحدود معرفته، فإننا سنقوم بالإشارة إلى منهج مهمّ لفهم الغزالي بشكل أفضل، وهذا المنهج سيكون دليلًا مهمًّا على قناعاتنا في هذا البحث؛ لأن هذه التصنيفات تكشف عن اختلافات مهمة في الطريقة التي ينظر بها علماء الطبقة الوسطى والطبقة العليا إلى المسألة.

ومن أجل تجسيد مسار فكر الغزالي الذي حاولنا توضيحه آنفًا، سيجري تحديد مواقع طالبي الحقيقة التي تشكل الفكرة الرئيسة لأفكاره وكشف اختلاف آرائه في الكلام، وهذا سيضمن تزويد القارئ بالآراء

[12] Gürbüz Deniz, "Hakikati Arayanların Sınıflandırılması", *Tasavvuf Dergisi*, Ankara 2003, sayı: 10, s. 147-158.

(الادعاءات) التي طرحها هذا البحث، وبسبب تصنيفات الغزالي هذه والتغيرات في وجهة نظره في الكلام، فإن تحديد الاختلافات في الرأي بين العوام وعلماء الطبقة الوسطى (المتكلمين) والخواص سيمنحنا الفرصة لرؤية الغزالي الذي يحدّد موقعه بنفسه، لا الغزالي الذي يحدّد موقعه الجميع وفقًا لآرائهم الخاصة.

أ) طالبو الحقيقة بحسب المنقذ

1. المتكلمون: وهم الذين يدّعون أنهم أهل الرأي والاستدلال.

2. الباطنيون: وهم الذين يزعمون أنهم أصحاب التعليم، وأنهم تعلموا الحقيقة من الإمام المعصوم.

3. الفلاسفة: وهم الذين يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان، وبحسب الغزالي، فقد كفر الفلاسفة بثلاث مسائل، وابتدعوا 17 مسألة.

4. الصوفيون: وهم الذين يزعمون أنهم في حضرة الله، وأنهم أهل المشاهدة والمكاشفة.[13] وفي أثناء قيام الغزالي بهذا التصنيف ينتقد الباطنيين والفلاسفة. وبينما يقول عن آراء المتكلمين والصوفيين: إنها "ادعاءات" (يدّعون)، فإنه يقول عن الباطنيين والفلاسفة: إنهم "يظنون" (يزعمون). وهذه الطريقة في التعبير هي نهج جدلي. لذا وعلى أي حال فهو يهاجم الآراء التي يهدف إلى نقدها، في كل مكان، وفي جميع الأوقات.

وكما هو معروف فقد أعلن الغزالي بالفعل أنه سينتقد الباطنيين والفلاسفة، بينما ذكر أن طريق الصوفيين هو طريق الحقيقة الذي اعتمده بنفسه. وفي هذه الحالة وبنظر الغزالي فإن المجموعة التي تحتاج إلى توضيح في نظر الغزالي هم المتكلمون؛ لأنه –وبخاصة بعد الغزالي– قد جرى تقييم الفلاسفة المسلمين في سياق التصنيفات والانتقادات التي قدمها الغزالي بهذا الأسلوب الكلامي. وفي هذا الصدد من المهم بالنسبة لنا كيفية القيمة التي نسبها الغزالي إلى الآراء الكلامية التي استخدمها لانتقاد الفلاسفة: أولًا، ما مدى اعتماد الغزالي حقًّا لهذه الأساليب والمحتويات الكلامية؟ ثانيًا، تقييم الآراء الكلامية التي ستُطرَح بنظر

[13] الغزالي، *المنقذ*، ص 57.

الغزالي وقيمة ما قاله الغزالي بهذه الطريقة؛ يعني إلى أي مدى سنأخذ هذه الآراء في الحسبان؟ فعبارة المتكلمين في نصوص الغزالي لها ثلاثة معانٍ:

أ) المتكلمون حتى عصر الغزالي.

ب) الكلام والمتكلمون مع الغزالي.

ج) الكلام بالمعنى الفلسفي. وبحسب الغزالي فإنه يشرح الكلام بالمعنى العام: " ثم إني ابتدأت بعلم الكلام، فحصَّلته، وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علمًا وافيًا بمقصوده، غير واف بمقصودي، وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها من تشويش أهل البدعة، واعتمدوا في ذلك على مقدمات (أسلافهم)، تسلموها من خصومهم (الفلاسفة وغيرهم)، واضطرهم (خصومهم) في النهاية إلى تسليمها".[14]

وتكمن منفعة الكلام بمنظور الغزالي في أمر واحد هو حراسة المسلمين للعقيدة وحفظها من تشويشات المبتدعة، ومن هنا فإنه لا يحرّم الكلام مطلقًا، بل يرى أنه قد يكون واجبًا كفائيًّا.

فالمتكلمون كما هو موضّح في تفسيرات الغزالي آنفًا، ليس لديهم غاية لاكتشاف حقيقة الدين بذاته؛ لأنهم على أرض الواقع ينبرون لمناقشة ما يخالف ذلك، ولهذا يقول الغزالي: إنه لم يطمئن للمتكلمين. وكما ذكر الغزالي مرات عديدة، فإن معظم الوسائل التي استخدمها المتكلمون للدفاع عن الدين هي أدلة الأشخاص ذوي التفكير المعاكس الذين تجادلوا معهم. وبحسب الغزالي فإن الدفاع عن الدين وإسكات الذين يهاجمون الدين بما يدعونه من التفكيرات المعاكسة نقطة انطلاق المتكلمين. وبالنسبة لنا فإن العديد من المقدمات التي أخذها المتكلمون من خصومهم للدفاع عن الدين والردّ على الذين أرادوا خلط البدع بالدين، ومع مرور الوقت وللأسف فقد أصبحت مفهومًا لدين المتكلمين. والوسائل التي جرى أخذها من الرواقيين وديموقريطوس هي أيضًا من هذا القبيل.[15]

ويقيّم الغزالي الآراء الكلامية والمتكلمين حتى عصره على الشكل الآتي:

---

[14] الغزالي، *المنقذ*، ص 59.

[15] Mehmet Bayraktar, *İslâm Felsefesine Giriş*, Ankara 1999, s. 56-57.

"نعم لما نشأت صنعة الكلام، وكثر الخوض فيه، وطالت المدة- تشوق المتكلمون إلى مجاوزة الذب عن السُّنّة إلى البحث عن حقائق الأمور، وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها. ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق"[16] ووجود المتكلمين بين علم الكلام والفلسفة ما هو إلا إجراء بحث لما لا غاية لهم فيه. ويَعُدّ الغزالي المتكلمين مقصرين في النقاط التي تدخلوا فيها في شؤون الفلاسفة. وبناء على هذا التقييم، وبالنسبة لنا من المهم طرح السؤال الآتي: إذا كان العالم الكلامي غير قادر على التفلسف في المسائل الفلسفية، على الرغم من انشغاله بالفلسفة، فكيف يمكن لهذا العالم الكلامي أن يدافع عن الدين والقيم الدينية ضد الفلاسفة باستخدام طريقتهم، وأن يقدم إجابات مرضية للفلاسفة؟ بالإضافة إلى ذلك يذكر الغزالي أنه من الصعب على أحد الوصول إلى حقيقة الأشياء بخلاف الشخص الذي جعلها هدفًا لنفسه. وبذلك يكون الغزالي قد ذكر ضمنًا أن الذين يصلون إلى الحقيقة العليا للشيء هم الفلاسفة الذين ينشغلون بهذا العمل.

يعدّ الغزالي التقليد الكلامي حتى عصره غير مقبول تقريبًا، ويقول: "لم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم، حيث اشتغلوا بالرد على الفلاسفة، إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد، لا يظن الاغترار بها بغافل عامي، فضلًا عمن يدعي دقائق العلوم، فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه، والاطلاع على كنهه رمي في عماية".[17] ويُلاحَظ أن الغزالي يعتقد بأن علم الكلام غير كافٍ للرد على الفلسفة؛ لذلك فهو يؤكد ضرورة قراءة أعمال الفلاسفة بجدية من أجل الصراع معهم.[18] وكان الغزالي قد اختار لنفسه طريقة كلامية من أجل مهاجمة الفلاسفة؛ لأنه فقد الأمل في المتكلمين حتى عصره. وإلى جانب ذلك فإننا نفهم أن الآراء الكلامية التي يراها الغزالي مشروعة هي آراؤه الخاصة التي طرحها بأصول كلامية.

علم الكلام الذي عدّه الغزالي في البداية غير كاف للتعبير عن الحقيقة، نرى أنه وضعه في موضع مختلف في الأعمال التي كتبها في نهاية حياته.

[16] الغزالي، *المنقذ*، ص 59-60.
[17] الغزالي، *المنقذ*، ص 61.
[18] الغزالي، *مقاصد الفلاسفة* (تحقيق: سليمان دُنيا، مصر 1961)، ص 31.

ونحن نسمي ذلك الكلام المفلسف في نظر الغزالي. وفي هذا الصدد يقوم الغزالي بإجراء تقييمات جديرة بالذكر وهي:

"العلم الكلي من العلوم الدينية هو الكلام، وسائر العلوم من الفقه وأصوله والحديث والتفسير علوم جزئية؛ لأن المفسّر لا ينظر إلا في معنى الكتاب خاصة، والمحدث لا ينظر إلا في طريق ثبوت الحديث خاصة، والفقيه لا ينظر إلا في أحكام أفعال المكلّفين خاصة، والأصولي لا ينظر إلا في أدلة الأحكام الشرعية خاصة، والمتكلم هو الذي ينظر في أعم الأشياء وهو الموجود"[19] وهذا المعنى الذي أعطاه الغزالي لعلم الكلام في كتابه هذا، هو معنى لا يمكن رؤيته في أعماله الأخرى، حيث يعرّف الغزالي علم الكلام وبخاصة في المنقذ بأنه علم يردّ على الانتقادات الموجهة إلى الإسلام، وليس علمًا يقوم ببحوث في العلوم الإسلامية وينتج المناهج، وأن التفكير في الأشياء (الموجودات) ودراستها هو عمل الفلسفة والفلاسفة. والموقع الذي وضعه الغزالي للكلام في أعماله قبل المستصفى هو أن الكلام علم دفاع؛ إذن لماذا عرّف الغزالي الكلام هكذا في المستصفى؟ هذا برأينا هو التطور الكبير للغزالي. وعلى الرغم من أن الغزالي عارض الفلسفة والفلاسفة كاسم، إلا أنه أظهر توسعًا كبيرًا من خلال إعطاء وظيفة الفلسفة للكلام. ولكي يرى قراء الغزالي هذا التطور، يجب أن يكونوا قراءً حاذقين، وإلا قد يبدو كل شيء وكأنه متشابك. حتى إن الغزالي ذهب إلى أبعد من ذلك حيث قال: "إن المتكلم يبتدئ نظره في أعم الأشياء أولًا، وهو الموجود، ثم ينزل بالتدريج إلى التفصيل، فيثبت فيه مبادئ سائر العلوم الدينية، من الكتاب والسنة وصدق الرسول".[20] وهذا النص وبخاصة القسم الأول منه، يعني أن العمل على دراسة الموجود بشكل عام -كما يعلم أهل الاختصاص- هو مجال دراسة تابع للفلاسفة. أما ضرورة الكتاب والسنة والنبي فهي مجال اهتمام الفلسفة -وبنسبة أقل- علم الكلام. وفي هذه المرحلة أنشأ الغزالي كلاما فلسفيًّا. ويمكننا القول: إنه جعل الكلام أقرب إلى الفلسفة من خلال العبارات الآتية: "...فإذا الكلام هو المتكفل بإثبات مبادئ العلوم الدينية كلها، فهي جزئية بالإضافة إلى الكلام، فالكلام هو العلم الأعلى في الرتبة، إذ منه النزول إلى هذه

[19] الغزالي، *المستصفى من علم الأصول* (تقديم وتحقيق: إبراهيم محمد رمضان بيروتي، دار الأرقم)، ص 18.
[20] الغزالي، *المستصفى*، ص 19-20.

الجزئيات"،[21] "فكل عالم بعلم من العلوم الجزئية فإنه مقلد لا محالة في مبادئ علمه".[22]

وكما هو معروف فقد كانت مهمة الفلسفة دائمًا كشف وإثبات (برهان) سبب وجود كل علم ومبادئه وأسلوبه التعليمي. فالانتقال من العام إلى الخاص هو اسم الطريقة الميتافيزيقية الأرسطية، حتى إن الغزالي في كتابه المسمى "تهافت الفلاسفة" الذي ينتقد فيه الفلاسفة وبعض آرائهم، جعل من المستحيل على الفلاسفة إثبات المسائل الميتافيزيقية من خلال العقل، وجعل هذه الادعاءات أهم نقطة انطلاق له. وعلى الرغم من ذلك، فإنه من الجدير بالذكر أنه قام بإسناد مثل هذه المهمة إلى علم الكلام. وبحسب قناعاتنا فإن هذا الموقف ظهر نتيجة تقييماته للعوام والخواص، فالغزالي الذي يدّعي في معظم أعماله المكتوبة للعلماء المتوسطين أن علم الكلام غير كاف من حيث الإيمان والرضا؛ لأن الحقيقة لن تنتج من الجدال أو الخصام، يمكن أن يُنظر إليه هنا على أنه في موقف معاكس تمامًا. وبحسب رأينا فالغزالي، وبسبب أنه ذكر علم (الفلسفة) من قبل وشهّر به وذمّه وكان قد اعترف به في أعماله السابقة ولو قليلًا في مجال العلوم العقلية يحاول في عمله الأخير إيجاد طريقة للانتقال به من المستوى الأوسط إلى المستوى العالي من خلال إعطاء وظيفته لعلم الكلام. ومنه نرى الكلام الفلسفي في المستصفى، والفلاسفة الذين توصلوا إلى النور في المشكاة.

ب) طالبو الحقيقة في المشكاة

بيّن الغزالي في بداية كتابه المنقذ أن الطريقة التي تقود إلى الحقيقة وترضي الناس روحيًّا هي الصوفية. وذكر أن طريق الصوفيين هو "الكمال بالعلم والعمل"،[23] ولكن وبحسب قوله، "فإن الوصول إلى الحقيقة بالمعنى النهائي ممكن من خلال تغيير الأذواق والأحوال والصفات وليس بالتعلم".[24] وبينما يعطي الغزالي الأولوية للعلم من أجل الوصول إلى هدفه الذي تصوره للحقيقة، فإنه يولي أهمية كبيرة للعيش وفقًا لمتطلبات هذا

[21] الغزالي، *المستصفى*، ص 20.
[22] الغزالي، *المستصفى*، ص 21.
[23] الغزالي، *المشكاة*، ص 79.
[24] الغزالي، *المشكاة*، ص 79.

العلم. وكما أن الصوفية الجاهلة ليس لها قدر ولا قيمة في نظر الغزالي، فإن العلم بدون عمل ليس له قيمة أيضًا. وهكذا يصنف الغزالي في كتابه مشكاة الأنوار رحلة الحقيقة النهائية لكل من أهل العلم وأهل التصوف وفقًا لمعرفتهم وخبراتهم الخاصة. وفي أثناء إجراء هذا التصنيف، غالبًا ما يقوم بعمل تصنيفات بالإشارة إلى محتوى السلوكيات من دون ذكر الأسماء التي تشتهر بها تلك الفئات.

وكما ذكرنا آنفًا فإن الغزالي يولي أهمية كبيرة لتحديد موقف الناس تجاه الدين، وبتعبيره الخاص تحديد درجاتهم في الدين. وأشهر هذه التصنيفات التصنيف الموجود في المنقذ، وقد قمنا من قبل بمناقشته. وعند تصنيف الناس فيه على أنهم طالبو الحقيقة، فإنه يهتم أكثر بإبداء قناعاته السلبية حول هذه الفئات ويعطي الأولوية له. وهذا الوضع يتوافق مع وجهة النظر الكلامية. ومع ذلك وعند تصنيف الناس الذين وصلوا إلى الحقيقة في المشكاة، فإنه يصنفهم للكشف عن وضعهم الإيجابي في سياق الواصلين إلى النور. وهذه الطريقة ليست لمناقشة قضية ما، ولكنها طريقة لعرض قضية كما هي مع الأدلة. وهذا النهج يتماشى مع موقف أهل الحكمة.

وبحسب الغزالي "فإن الله تعالى متجلّ في ذاته بذاته لذاته".[25] وتجلّي الله تعالى في ذاته بذاته هي الأنوار الإلهية المرتبطة بالوجود النابعة من ذاته، وهذا هو التلاقي مع النور الإلهي الأول، وبما يتعلق بالاتصال مع هذا النور فإن الخلق ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

1. "المحجوبون بمحض الظلمة: وهم الملحدة، ومن اتخذ إلهه هواه، ومعظم الناس من فئة العوام موجودون في هذه الفئة. أما من أثرت فيه الكلمة بحيث ساءته سيئته وسرته حسنته فهو خارج عن محض الظلمة وإن كان كثير المعصية"؛[26] أي أن من يعتقد التوحيد بإخلاص لديه الفرصة والأمل للتخلص من الظلم بعناية الله تعالى، حتى وإن كانت ذنوبه كثيرة.

2. تبرز فئتان في هذا القسم:

[25] الغزالي، *المشكاة*، ص 89.
[26] الغزالي، *المشكاة*، ص 90.

أ) طائفة حُجِبوا بنور مقرون بظلمة، وهؤلاء يحبون الجمال المطلق: حيث إنهم يعبدون الجمال المطلق دون الشخص الخاص؛ ومن بينهم من يعبد القوة والنجوم.[27] وعلى الرغم من تفاؤل الغزالي بهذه الطبقة، إلا أنه لم يصدر أي أحكام دينية بحقهم.

ب) طائفة تنزه الله من خلق الشر، ومن بين هؤلاء علماء السلف والكرّامية. وبحسب الغزالي فهم المحجوبون بالأنوار الإلهية مقرونة بمقايسات عقلية فاسدة مظلمة.[28]

3. ويشمل هذا القسم المحجوبين بمحض الأنوار.[29] ويضم أيضًا عدة أصناف. وأهم هذه الأصناف:

أ) طائفة تحاشت عن تعريف الله بالصفات، وقالت: إن صفات الله ليست كصفات البشر، وإن الرب المقدّس منزّه ولا يصح وصفه بصفات (مثل صفات البشر).[30] وكما هو معروف فإن أسلوب النهج هذا يعبر عن منهج الفلاسفة المسلمين والمعتزلة في تاريخ الفكر الإسلامي. وعلى الرغم من أن هذه المجموعة في مستوى أدنى، إلا أنهم هم الذين يصلون إلى النور ويفهمون الحقيقة على حق.

ب) الموجودون في هذا القسم هم الذين طرحوا الآراء الآتية: "فقد ظهر لهم أن في السماوات كثرة، وأن محرك كلّ سماء خاصة موجود آخر يسمى مَلكًا، وفيهم كثرة، وإنما نسبتهم إلى الأنوار الإلهية نسبة الكواكب. ثم لاح لهم أن هذه السماوات في ضمن فلك آخر يتحرك الجميع بحركته في اليوم والليلة مرة. فالرب هو المحرك للجرم الأقصى المنطوي على الأفلاك كلها إذ الكثرة منفية عنه".[31] وندرك هنا أن الغزالي قصد الفلاسفة بهذين التصنيفين، بنفيه للكثرة في الله، وقبوله للوجود باعتباره صدر عن الفلك الأول والنور، وتسميته الله بالمحرك الأول. وما يبدو هنا وكأنه مشكلة هو أن الغزالي استخدم مصطلح "النور" بدلًا من مصطلح "العقل" في الفلسفة. ولكن وفي أجزاء أخرى من المشكاة، ومن الجدير بالذكر

[27] الغزالي، *المشكاة*، ص 93-94.
[28] الغزالي، *المشكاة*، ص 94-95.
[29] الغزالي، *المشكاة*، ص 96.
[30] الغزالي، *المشكاة*، ص 96.
[31] الغزالي، *المشكاة*، ص 96.

بالنسبة لنا أن الغزالي قد صرّح مرارًا وتكرارًا أن المصطلح الذي يعبر بشكل أفضل عن مصطلح النور هو العقل.[32]

وفي النتيجة نجد الغزالي يرفع الفلاسفة، الذين ينتقدهم في المنقذ ويتهمهم بالكفر- إلى موقع مهمّ جدًّا بتصنيفه وتقييماته في المشكاة، ولا يراهم أبدًا خارج الدين. وهذا فرق مهمّ بين نهجه لمسألة ما من نظرة العلماء الوسطيين ونهجه في المسائل نفسها في مؤلفاته للعلماء الراسخين. ويظهر هذا الأصول في حل كل مشكلة تقريبًا، وبالإضافة إلى ذلك ومع زيادة الخبرة والمعرفة لدى الغزالي فإن نهجه تجاه الناس يتجه نحو أساس أكثر نضجًا.

ج) يخصص الغزالي هذا الجزء للصوفيين. والموجودون في هذه الفئة يشكلون قمة الذين يصلون إلى النور. وبحسب الغزالي فإن آراء الصوفيين هي كما يأتي: "... ونسبة هذا المطاع إلى الوجود الحق (الله) نسبة الشمس إلى النور المحض، أو تمامًا مثل نسبة الجمر في جوهر النار، فتوجهوا مِن الذي يحرك السماوات ومن الذي يحرك الجرم الأقصى، ومِن الذي أمر بتحريكها إلى الذي فطر السماوات وفطر الجرم الأقصى وفطر الآمر بتحريكها، فوصلوا إلى موجود منزه عن كل ما أدركه بصرٌ من قبلهم"[33] ويتضح هنا أن كل شيء نور ولا وجود حقيقي غير النور، وهذا الرأي الذي هو قناعة الغزالي في وحدة الوجود قد أصبح واضحًا كآراء الصوفيين. والأشخاص الذين ينتمون إلى هذه الفئة هم الذين وصلوا إلى أبعد من أفكار (المحرك الأول) التي تتصورها الفلسفة.

وعلى الرغم من أن الغزالي يَعُدّ الصوفيين أعلى طبقة تصل إلى الحقيقة بالمعنى النهائي، إلا أن مقاربته للفلاسفة في كتبه المكتوبة بمحتوى الكلام لا تتوافق مع وجهات نظره في هذا العمل، فهناك يقوم بوصفهم بأهل الضلالة وهنا يقوم بوصفهم بأنهم الذين وصلوا إلى النور، وأنهم يرون الحقيقة بالنور الإلهي. والعبارات الآتية من شأنها أن تزيد من ترسيخ هذه القناعة. "فالعقل ينبهه كلام الحكمة، فعند إشراق نور الحكمة يصير العقل مبصرًا بالفعل بعد أن كان مبصرًا بالقوة، وأعظم الحكمة كلام الله تعالى، ومن جملة كلامه القرآن خاصة، فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل

[32] الغزالي، *المشكاة*، ص 44، 46، 50.
[33] الغزالي، *المشكاة*، ص 97.

منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة إذ به يتم الإبصار"[34] ويظهر نهج الفلاسفة للعقل على شكل نور عند الغزالي: فيستخدم الغزالي الدلالات التي طرحها الفلاسفة من أجل النور. وفي "المشكاة" ينسب الغزالي تفكير الفلاسفة إلى الفهم الميتافيزيقي النير لسيدنا إبراهيم عليه السلام والصوفية ولسيدنا محمد عليه السلام على أنه النور المحمدي.[35] وكما تطرقنا سابقًا فإن النهج نفسه كان موجودًا في "القسطاس المستقيم". وفي هذا العمل أشار الغزالي بكل وضوح وبالاسم إلى أهل الحكمة، وذكر أنهم أصحاب الطريقة الإبراهيمية.

وكما ذكرنا آنفًا فإن الغزالي انتقد بشدة الفلاسفة لمحاولتهم شرح المسائل الميتافيزيقية وفقًا لقاعدة السببية. ومع ذلك فإن الغزالي في هذا العمل ينسب فهم السببية إلى المنطق الإبراهيمي، وبوصفه صوفيًّا مستقلًّا عن الانتماءات السياسية، وربما لأنه يرى نفسه في أعلى مستوى من طالبي الحقيقة فإنه يتقبل الفلاسفة كما هم، وينظر إليهم بعين الرحمة، ومع ذلك فإننا نعتقد أنه طوّر هذا الرأي بتأثير المعلومات التي تلقاها من الفلاسفة.

وبحسب الغزالي: "هناك من الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغني عن مدد الأنبياء؛ وفي الأنبياء من يكاد يستغني عن مدد الملائكة".[36]

وتثير فكرته هذه مفهوم الفيلسوف–النبي. هذا الرأي الذي دعا إليه الفارابي ينشأ من اتصال الفيلسوف مع العقل الفعال. أما الغزالي فقد فسر المقارنة بين الولي والنبي على أنها "الصافي البالغ الاستعداد الذي يكاد زيته يضيء، ولو لم تمسسه نار". وهناك تفسيرات مفادها أن أصحاب القدرات الصافية الاستعداد والقوية والموهوبين يمكنهم تصفية قوتهم العقلية والوصول إلى الكفاءات المتعلقة بالوحي نتيجة اتصالهم بالعقل الفعال؛ أي أن هناك أوجه تشابه واضحة بين هذه التفسيرات.

---

[34] الغزالي، *المشكاة*، ص 51.

[35] الغزالي، *المشكاة*، ص 98. كما هو معروف، في الاقتباس الذي قدمناه في بداية هذا المقال من القسطاس المستقيم حذر الغزالي بذاته أهل الحكمة من اتباع أخلاق إبراهيم عليه السلام وأدلته. يبين لنا القسطاس المستقيم أن الجماعة التي لم يرد اسمها في مشكاة الأنوار هم الفلاسفة من أهل الحكمة. انظر، الغزالي، *القسطاس*، ص 42.

[36] الغزالي، *المشكاة*، ص 86.

ج) تطور المسائل الثلاث

اشتهر الغزالي لدى العوام والعلماء الوسطيين بانتقاداته للفلاسفة في مؤلفاته المنقذ والتهافت. تتكون ادعاءات الغزالي عن الفلاسفة في المنقذ والتهافت من ادعاءات وقناعات تعدّها هذه الشريحة سطحية لا قراءات مفصّلة. أما نحن وإلى جانب تقييمات الغزالي للمسائل الثلاث في مؤلفاته المكتوبة باسم العوام وعلماء الطبقة الوسطى فإننا سنحاول طرح هذه المسائل الثلاث وفقًا لوجهات نظره المختلفة، ولاسيما في الأعمال التي كتبها للعلماء الراسخين.

يتهم الغزالي الفلاسفة بالكفر في ثلاث مسائل:

1. مسألة قدم العالم،

2. إنكارهم أن يحيط الله علمًا بالجزئيات الحادثة،

3. إنكارهم بعث الأجساد وحشرها. أعماله *تهافت الفلاسفة والمنقذ* واضحة جدًّا في هذا الخصوص. ويسوّغ الغزالي سبب وقوع الفلاسفة في الكفر واتهامهم بالكفر كما يأتي:

أ) آراء الفلاسفة المخالفة للكتاب والسنة النبوية.

ب) اختلافهم مع جميع المسلمين في المسائل الثلاث.[37] وعلى الرغم من أن الغزالي له تأويله الخاص، إلا أنه قد يكون من المعقول اتهام الفلاسفة بالكفر؛ لأن لديهم آراء تنكر القرآن والسنة النبوية. ومع ذلك فليس من المعقول أن يُتّهم الفلاسفة بالكفر؛ لأن آرائهم تتعارض مع جميع المسلمين (أي لأنها لا تتوافق مع تفسير المسلمين للدين). هذا السبب الذي ذكره في المنقذ ربما نشأ من مشكلة اجتماعية لا دينية. ويذكر الغزالي السبب نفسه، وهو اتهام الفلاسفة بالكفر؛ لأنهم لا يتبعون آراء أي طائفة من المسلمين، في مقدمته الثالثة في التهافت، وبحسب رأينا وكما يؤكد ابن رشد فإن الغاية من تأليف كتاب الغزالي هذا هو اضطراب البيئة السياسية في عصره، إذ جرى تنظيمه لغايات سياسية لا دينية.[38]

---

[37] الغزالي، *المنقذ*، ص 76.

[38] İbn Rüşd, *Tehâfütü't-tehâfüt* (çev.: Kemal Işık, Mehmet Dağ), Samsun 1986, s. 58.

يرجع اتهام الغزالي للفلاسفة بالكفر لسبب عدم تناسب أفكار الفلاسفة تمامًا مع تقليد الكلام، باستثناء إنكار حشر الأجساد. وفي المسألتين الأخريين غير إنكار حشر الأجساد ينقل الغزالي من وقت لآخر أقوال الفلاسفة حول هذه المسائل بعد تغييرها. وهكذا فإنه يسلك طريقًا خطأً لتقوية ادعائه بأن الفلاسفة يعارضون أيضًا الأحكام الواضحة نصًّا في هذه الأمور. وعلى سبيل المثال يقول ابن سينا: "إنه تعالى يعلم الجزئيات بصورة كلية"،[39] فيقوم الغزالي بنقل هذا القول على النحو الآتي: "الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات"[40] ثم يتبعها بالآية التي تبين أن الله يعلم كل شيء: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[41] (سبأ، 3/34). وفي الواقع فإن هذه الآراء التي نقلها الغزالي من الفلاسفة والقرآن مدهشة جدًّا لمن يعرف نصوص ابن سينا؛ لأن الآية التي ذكرها الغزالي بقوله: "إن الإسلام هو كما جاء في الآية"، كان قد ذكرها ابن سينا قبل الغزالي في كتابه النجاة وللموضوع.[42]

وفي كتاب *فيصل التفرقة*، الذي كتبه الغزالي للعلماء الراسخين، حصر أسباب وقوع الفلاسفة في الكفر تقريبا على إنكار الفلاسفة للحشر الجسدي، دون الخوض في المادتين الأخريين. وإلى جانب ذلك وبحسب الغزالي فإن "هذه الدرجة من الزندقة"[43] هي تقديم مثل هذه التأويلات. وهذه رتبة بين الزندقة في الاعتزال وبين الزندقة المطلقة. فالمعتزلة يقرب منهاجهم من مناهج الفلاسفة إلا في هذا الأمر.[44] وبحسب الغزالي "فإن إثبات المعاد بنوع عقلي وروحاني مع نفي الآلام واللذات الحسية وإثبات الصانع مع نفي علمه بتفاصيل العلوم فهي زندقة نسبية ومقيدة. فهنا يوجد نوع اعتراف بصدق الأنبياء".[45] وكما نرى فحتى إنكار حشر الأجساد لا يوصف في الفيصل بالزندقة المطلقة أو الكفر.

---

[39] ابن سينا، *النجاة في المنطق والإلهيات* (دار الجيل، 1992)، ص 103.
[40] الغزالي، *المشكاة*، ص 68.
[41] الغزالي، *المشكاة*، ص 68.
[42] انظر: ابن سينا، *النجاة*، ص 103.
[43] المقصود بهذه الدرجة هم الفلاسفة الذين يفسرون البعث بأنه روحي لا جسدي.
[44] الغزالي، *فيصل*، ص 71.
[45] الغزالي، *فيصل*، ص 71.

وبحسب الغزالي "فإنه يجب النظر في أن ذكر تلك المقالة هل يعظم ضررها في الدين أم لا؟ فإن ما لا يعظم ضرره في الدين فالأمر فيه أسهل وإن كان القول شنيعاً وظاهر البطلان... ولا ينبغي أن يكفر بكل هذيان وإن كان ظاهر البطلان".[46] وفي هذه الحالة من الجدير بالذكر أن ذكر تلك المقالة يتم تقييمها من حيث البيئة التي قيلت فيها. بالإضافة إلى ذلك إذا كان كل تأويل شرعيا[47] فلا يلزم الكفر للمؤولين ما داموا يلازمون قانون التأويل ولا ينبغي المبادرة لتكفيرهم في كل مقام. فالتأويل هي تفسيرات يتم إجراؤها من خلال النظر في الهدف من النص، وليس المعنى الظاهر للنص، ومعظمها بسبب المصلحة. ولهذا السبب وكما يقول الغزالي في هذا الموضع "ولعلك إن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفاً على واحد من النظار بعينه، فهو إلى الكفر والتناقض أقرب".[48]

فالعبارات أعلاه تظهر بكل وضوح أن التفسير الديني ليس فرديا بل جماعي، وأنه ليس كل تفسير ديني هو دين، وأن إمكانية التفسيرات الفردية ممكنة ضمن سياقها وأصولها الخاصة. ولكن لا يبدو أنه من الممكن التعبير عن الحقيقة بالمعنى النظري ووضع هذه النظرية موضع التنفيذ، خاصة عندما يتنكر الغزالي في هيئة عالم كلامي.

وبحسب الغزالي؛ "فإن معنى أن يرتد الإنسان عن دينه يعني أن يتم مصادرة ماله واعتبار قتله مباح والحكم عليه بأنه سيخلد في جهنم في الأخرة الآخرة"[49] وهذه القناعة التي عبر عنها في *الفيصل* وعدّها أساس إيمانه، تفتح الباب لنا للوصول إلى نتائج مثيرة للاهتمام عند مقارنتها بآرائه الأخرى حول هذا الموضوع، ففي القسم الأخير من كتابه المسمّى تهافت الفلاسفة، يقوم الغزالي -كما لو أن أحدهم وجه إليه سؤالًا عن الفلاسفة- بطرح أسئلة والإجابة عنها، فالسؤال والجواب لهما أهمية كبيرة بالنسبة لنا لتحديد الرأي النهائي للغزالي حول هذه المسائل الثلاث، والسؤال كالآتي: "هل وقع الفلاسفة في الكفر بخصوص المسائل الثلاث التي ذكرتها؟ وإذا

---

[46] الغزالي، *فيصل*، ص 78-79.

[47] انظر: الغزالي، *الفيصل*، ص 65.

[48] الغزالي، *فيصل*، ص 52-53. وبحسب الغزالي أيضًا: "التأويل هو التصريح باللفظ بعد صرف معناه الظاهر". İlcâmü'l-avâm, (çev. N. Yılmaz), İstanbul 1987, s. 34؛ إذن فالغزالي يرى أن التأويل أسلوب جائز في النصوص الدينية.

[49] الغزالي، *فيصل*، ص 75.

كفروا فهل يجوز اعتبارهم مرتدين ومصادرة أموالهم وقتلهم؟"[50] يقول الغزالي في الإجابة عن القسم الأول من السؤال: "نعم، لقد وقعوا في الكفر"، لكنه لم يشر إلى ضرورة مصادرة أموال الفلاسفة وقتلهم، وعلى الرغم من أن الغزالي سأل نفسه هذا السؤال تحديدًا، إلا أنه لم يُجب عن هذا السؤال. وعندما نركز في التفصيلات الدقيقة لكتاباته، وحتى في آثاره التي كتبها بأسلوب كلامي، فإنه يمكننا أن نرى أنه لم يتخذ موقفًا صارمًا ضد الفلاسفة. وهذا يعني أن الغزالي يتّهم الفلاسفة بالكفر بالمعنى السياسي والاجتماعي لا بالمعنى الشرعي. فبالنظر في تفسيرات الغزالي مجموعةً بما يتعلق بحكم المرتد الذي اقتبسناه من الفيصل –ونحن لسنا بتلك القناعة نفسها– يصبح من السهل الوصول إلى هذا الاستنتاج.

وكما ذكرنا أعلاه، فإن مشكلة أقدمية العالم، وهي إحدى المسائل الثلاث التي يتهم فيها الغزالي الفلاسفة بالكفر– ليست لها صلة مباشرة بالنص. ومن هذه المسائل أيضًا عبارة "أنه تعالى يعلم الجزئيات بصورة كلية"، وبالتركيز في النظم الفلسفية للفلاسفة (خصوصًا ابن سينا والفارابي) فإنه بالنسبة لنا لا يعني أن الله لا يعرف التفصيلات، على الأقل ليس بالطريقة التي ينقل بها الغزالي باسم الفلاسفة، "الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات". وقد تكون الكلمة الأكثر صراحة التي يمكن قولها حول هذا الخصوص هي أن الفلاسفة في تأويل بشأن هذا الموضوع. ولكن النقطة التي يجري فيها تجاهل المعنى الظاهري نصًّا من بين هذه المسائل الثلاث هي إنكار حشر الأجساد؛ ويكشف الغزالي عن تفسيرات مثيرة للغاية حول قناعات الفلاسفة هذه في كتابه *ميزان العمل* خاصة، وبنسبة أقل في *الفيصل*.

وحول هذا الموضوع كتب الغزالي في *الفيصل* ما يأتي: "الإحساس يليق بمن يحتقر الملذات (العاطفية)، فهي مصدر شفاء لجشعهم ورغباتهم، والدعابات مصدر الفرح والسرور والكلمات اللطيفة ذات المعنى، والملذات العقلية أي اللذات تأتي من تذوق الإحسان؛ لأن وجود كل ما تشتهيه النفس في الجنة هو تعريف الجنة وتحديد حدودها، فعندما تتنوع

[50] Gazâlî, *Tehâfüt* (çev: Bekir Sadak), İstanbul 2002, s. 243-244.

الأشياء التي تشتهيها النفس ليس بعيدًا عن العقل والمنطق أن الأذواق العقلانية وأنواع الأذواق الأخرى متنوعة أيضًا، فالقدرة (الإلهية) واسعة"[51]

إن رفض ابن سينا قبول حشر الأجساد باعتباره أن البعث الروحي هو الأساس يرجع إلى إيمانه بعقلية العقاب والثواب الأخروي واستدلالاته العقلية. وإذا كان من الممكن أيضًا أن تكون العقوبة والمكافأة عقلانية وغير حسية في الآخرة كما يقول الغزالي، وكانت ماهية أحوال البعث متنوعة، فإذا عمم ابن سينا أو الفلاسفة أحد هذه الأنواع، فلا داعي لاتهامهم بالكفر. ولكن، لم يكن لأفكار الغزالي بعد الغزالي صفة تعكس الفكر الكلي للغزالي؛ لأن أعماله التي كتبها للعلماء الراسخين لم تكن مرغوبة من قبل علماء الطبقة الوسطى. إن ما قاله الغزالي في كتابه "ميزان العمل" في مسألة حشر الأجساد يستحق الكثير من التأمل. في هذا العمل يقسم الغزالي الناس بحسب إيمانهم بالبعث إلى ثلاث مجموعات بما يتعلق بكيفية البعث. وهي:

1. المسلمون والمسيحيون واليهود الذين يؤمنون حسيًّا وروحيًّا بالبعث الذي يقتضي وجود العالم الآخر.[52]

2. بعض علماء اللاهوت الإسلاميين من الفلاسفة. هؤلاء أنكروا وجود الحسّيّات من الخارج. ولكن أثبتوها على طريق التخيل في حالة النوم.[53]

3. المشمولون في هذه المجموعة ذهبوا إلى إنكار اللذة الحسية جملة، بطريق الحقيقة والخيال، وزعموا أن التخيل لا يحصل إلا بآلات جسمانية، والأحاسيس الحسية هي رغبات العوام. والغزالي وبعد إجراء هذا التصنيف أوضح من شملتهم هذه المجموعة الأخيرة على النحو الآتي: "وهذا أيضًا إذا صح، فلا يوجب فتورًا في الطلب، بل يوجب زيادة الجد. وإلى هذا ذهبت الصوفية والإلهيون من الفلاسفة من عند آخرهم، حتى إن مشايخ الصوفية صرّحوا ولم يتحاشوا، وقالوا: من يعبد الله لطلب الجنة أو للحذر من النار فهو لئيم. وإنما مطلب القاصدين إلى الله أمر أشرف من هذا"[54]

---

[51] الغزالي، *فيصل*، ص 356.
[52] الغزالي، *ميزان العمل* (تاب. محيي الدين صبري، مصر، 1328)، ص 5.
[53] الغزالي، *ميزان*، ص 6.
[54] الغزالي، *ميزان*، ص 8؛ يذكر سليمان أولوداغ في المقدمة التي كتبها عن كتاب الغزالي *ميزان العمل* (مصر 1961): إن قناعات الفلاسفة حول قدم العالم والبعث

وعلى عكس المنقذ الذي كتبه الغزالي بأسلوب كلامي، فإن الغزالي يعبر عن إنكار الحشر الجسدي باعتباره السمة الأكثر تميزًا لوقوع الفلاسفة في الكفر، في كتبه الأخرى (وبخاصة فيصل التفرقة) التي كتبها للعلماء الراسخين. وفي هذا العمل، يقدم الغزالي الذين لا يقبلون البعث الجسدي (الحسي) ولكنهم يقبلون البعث الروحي بطريقة تكاد تكون ثناء عليهم. والحقيقة، أن الغزالي أكد أن الهدف الأسمى هو أن يكون الناس مستعدين للآخرة بقصد رضا الله، الذي هو أكبر من الفوز بالجنة والخوف من النار.

يختصر الغزالي في "الفيصل" اتهامه الفلاسفة بالكفر في مسألة واحدة تقريبًا، هي إنكار حشر الأجساد، في حين أنه يتهمهم بالكفر في ثلاث مسائل بشكل وجيز في "المنقذ" وبشكل مفصل في "التهافت". ومن ناحية أخرى فقد جاء في "ميزان العمل" أنه ليس الفلاسفة فقط الذين ينكرون حشر الأجساد بل الصوفيون أيضًا، وهم يؤكدون أن الذين يؤمنون بالبعث بهذه الماهية لن يواجهوا أيّ مشكلات بخصوص الآخرة، بل على العكس، عليهم أن يعملوا بجهد أكبر؛ لأنهم يسعون وراء أهداف أسمى. وبحسب قناعاتنا وكما جاء في التهافت فقد عرف الغزالي أن من ينكر بعث الجسد هم الفلاسفة فقط. وعندما علم (بعد مغادرته النظامية) أن بعض الصوفيين يؤيدون هذا الرأي، عندها بدأ ينظر إلى هذه المسألة بتسامح أكبر؛ لأن الفلاسفة والصوفيين -وكما أشار الغزالي- لديهم تفسيرات حول ماهية البعث، ولا ينكرون الآخرة ولا الغاية التي توجّه إليها الآخرة. وكما ذكر الغزالي أيضًا في "قانون التأويل" فإنه ليس من الصحيح اتهام الناس بالكفر في التفسيرات (المسائل النظرية) التي تتعلق بالغيب. وقد كان ابن رشد أول من أدرك أن الغزالي لم يحكم على الفلاسفة حسب فهمه للتأويل. وبحسب ابن رشد فإن الغزالي قد خفف رأيه هذا في *الفيصل*.[55]

الروحاني وأنه تعالى يعلم الجزئيات بصورة كلية قبلها الغزالي لاحقًا.
Uludağ, Süleyman, İslâm Düşüncesinin Yapısı, İstanbul 1978, s. 251.

[55] İbn Rüşd, *Felsefe-Din İlişkileri (Faslu'l-Makal)* (çev. Bekir Karlığa), İstanbul, 1999, s. 92.

الخاتمة

الغزالي ليس بالشخص الذي يمكن تعيين حدوده بكتابه أو أراءه حول علم ما. فمعظم التقييمات التي تم إجراؤها حول الغزالي لا سيما من قبل العوام والعلماء الوسطيين كانت بهذا النحو. عندما نقرأ الغزالي بكل جوانبه نرى أنه لم يقصد إيذاء أحد، بل إنه، وعلى أساس الأفكار، أعطى أهمية خاصة لضرورة تخصص العلوم، وضرورة التزام العلماء بمتطلبات علومهم الخاصة. فالأفكار التي قبلها الغزالي بذاته موجودة في مصنّفاته التي كتبها للعلماء الراسخين، وفي هذه الآثار لم يتردد في التعبير عن الأفكار التي كتبها وادّعى أنها للعوام وللعلماء الوسطيين، بل وتناقض معها ظاهريًا. وهذا الأسلوب هو طريق مشروع للإحيائي؛ لأنكم ستقولون شيئًا للجميع ولن تتعارض أي فكرة مع الأخرى ولو ظاهرًا، وهذا أمر صعب بل ومستحيل تحقيقه، ومع ذلك فقد جرت محاولة الكشف عن نية الغزالي نسبيًا من خلال هذا البحث، حيث تحقّق القضاء على هذه الصعوبة إلى حدّ كبير.

المصادر والمراجع

ابن سينا، *النجاة في المنطق والإلهيات*، دار الجيل، 1992.

أبو حامد الغزالي، *فيصل التفرقة*، تحقيق: سميح دغيم، بيروت 1993.

أبو حامد الغزالي، *القسطاس المستقيم*، تحقيق: فيكتور شلحت، بيروت 1991.

أبو حامد الغزالي، *المستصفى من علم الأصول*، (تقديم وتحقيق: إبراهيم محمد رمضان بيروتي، دار الأرقم دون التاريخ.

أبو حامد الغزالي، *مشكاة الأنوار*، تحقيق: سميح دغيم، بيروت 1994.

أبو حامد الغزالي، *مقاصد الفلاسفة*، تحقيق: سليمان دُنيا، مصر 1961.

أبو حامد الغزالي، *المنقذ من الضلال*، تحقيق: سميح دغيم، بيروت 1993.

أبو حامد الغزالي، *ميزان العمل*، (تاب. محيي الدين صبري، مصر، 1328

عبد الرحمن بدوي، *مؤلفات الغزالي*، الكويت 1977.

Bayraktar, Mehmet, *İslâm Felsefesine Giriş*, Ankara 1999.

Deniz, Gürbüz, "Hakikati Arayanların Sınıflandırılması", *Tasavvuf Dergisi*, Ankara 2003, sayı: 10, s. 147-158.

Gazâlî, *İlcâmü'l-avâm*, (çev. N. Yılmaz), İstanbul 1987.

Gazâlî, *Kur'an Cevherleri* (çev. Ömer Türker), İstanbul 2006.

Gazâlî, *Tehâfütü't-tehâfüt* (çev: Bekir Sadak), İstanbul 2002.

Hourani, George F., "The Chronology of Ghazali's Writtings", *Journal of the American Oriental Society*, 79 (4): 1959.

İbn Rüşd, *Tehâfütü't-tehâfüt* (çev.: Kemal Işık, Mehmet Dağ), Samsun 1986.

İbn Rüşd, *Felsefe-Din İlişkileri (Faslu'l-Makal)* (çev. Bekir Karlığa), İstanbul, 1999.

Uludağ, Süleyman, *İslâm Düşüncesinin Yapısı*, İstanbul 1978.

Watt, Montgomery, "A Forgery in al-Ghazali's Mishkat", *JRAS*, 1949, s. 5-22